الكتاب التاسع

الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي

المؤلف أ.د. محمد البهي

تحليل وعرض أ.د. سليمان الخطيب

يُدْرَج موضوع هذا الكتاب في إطار الجهود الفكرية الإسلامية المُعاصرة، التي تسعى لمواجهة مُشكلات الأُمّة الإسلاميّة خلال حقبة الاستعمار وحتى الآن، حيث يسيطر الصراع على طبيعة العلاقات بين المُجتمعات وخاصة العالمين الإسلامي والغربي.

ومن أخطر ما ابتليت به المُجتمعات الإسلاميّة المُعاصرة، بعد رحيل الاستعمار العسكري، ما يمكن أن نطلق عليه الاختراق الثقافي لمجتمعاتنا، ويتمّ ذلك من خلال الترويج لثقافة وفلسفات الغرب والتي تسعى في تصميم ودأب في غاية العدوانية إقصاء واستبعاد الوجود الإسلامي من خارطة الكيانات والمعاصرة.

ويحمل لواء هذه المهمّة مجموعة لا يستهان بها من سماسرة الغزو الفكري والثقافي، والذين استلبت توجهاتهم لصالح الأطماع الغربية في كافّة المجالات الفكرية والأدبية والفنية في محاولات لا تنتهي ولا تخمد من أجل النيل من هويّة الأمّة الإسلامية، عبر رياح التآمر والتعاون مع دوائر الهيمنة الغربية التي لا نستطيع استبعاد الأيادي الصهيونية أن تكون رافدًا من روافدها.

والكتاب الذي نحن بصدده، يسعى جاهدًا للتفتيش عن المرجعية الفكرية والمذهبية التي تشكّل حجر الزاوية في منطلقات العلمانيين والمتغربين العرب، فيبحث عن جذور هذه التبعية الفكرية والأيديولوجيّة لهذا الفريق المدافع عن ثقافة الغرب؛ ثقافة الهزيمة والتبعية.

والكتاب مواجهة مباشرة لتيارات فكرية مستترة، وراء عناوين خادعة، وهي في جوهرها محاولات عنيفة لفصل المسلمين عن دينهم، ووضعهم في مجالات التبعية لغيرهم، هم وما تحت أيديهم من ثروات طبيعية، وما لهم من طاقات بشرية.

وما إن باشر النفوذ الغربي سلطته في رقعة الشرق الإسلامي، منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حتّى ابتدأ يعمل على تخلّف المسلمين وتحقيق أطماعه على مُختلف الأصعدة، وكان إفساد الإسلام والتراث الإسلامي إذن، غرض أوّل للمُستعمر الغربي.

وقد نشأ في التفكير الإسلامي منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر - اتجاهان:

- أحدهما لمالأة الاستعمار الغربي، في تقريب الإسلام من المسيحية أو في تبديله إلى توجيه ديني يرضى عنه المستعمر.

- والثاني لمقاومة هذا التقريب أو هذا التبديل، مع الدعوة إلى احتفاظ المسلمين بإسلامهم كما يصوّره القرآن والسنّة، والسعي إلى الاستقلال، وعدم انصهار المسلمين في غيرهم.

جاء القرن العشرون، واستمرت الثنائية في اتجاه التفكير الإسلامي، ولكن أحد الاتجاهين عُرف باسم «التجديد»، بينما عُرِفَ الاتجاه الآخر باسم «الاتجاه الإصلاحي» أو اتجاه تجديد المفاهيم الدينية.

واتجاه التجديد، سار في طريق مقدمة الاستعمار الغربي - ولكن عن غير قصد مباشر - على نحو ما سار الاتجاه المعاون له في النصف الأخير من القرن الماضي، فحركة التجديد تعتبر تقليدًا للدراسات الإسلاميّة في تفكير المستشرقين الغربيين، ثمَّ أُضيف إلى هذا التقليد فيما بعد، ترديد الفكر الإلحادي الماديّ الغربيّ، وهو

التفكير الوضعي الماركسي.

أمَّا محاولة تجديد المفاهيم الدينية، منذ بداية القرن العشرين، فقد باشرها في مصر تلاميذ الشيخ «محمد عبده» في مصر و«محمد إقبال» في الباكستان.

وهكذا - كما يرى المؤلّف - أنَّ الاستعمار الغربي له صلة وثيقة بالفكر الإسلامي منذ بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتّى الآن.

ونحن لا نوافق المؤلِّف إطلاقه «الفكر الإسلامي على الاتجاهات الفكرية العلمانية والتغريبية التي ظهرت في العالم الإسلامي، حتّى نستطيع التمييز بين الفكر الإسلامي المُنطلق من المرجعية الإسلامية قرآنًا وسنّة، وبين فكر آخر تبلور في مُجتمعاتنا ينهل من معين الوافد الفكري والثقافي الغربي.

الإطار التاريخي: الاستعمار الغربي يتسلل إلى العالم الإسلامي:

منذ بداية القرن السابع عشر الميلادي إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تمكّن الاستعمار الغربي المسيحي من السيطرة التامّة على المُسلمين في وسط آسيا وشرقيها، واتّخذ له نقطة ارتكاز رئيسية في أفريقية، كما تمكّن من مدّ نفوذه إلى قلب العالم الإسلامي، ومركزه الرسمي في منطقة الشرق الأدنى، وبذلك طوّق العالم الإسلامي من الشرق والغرب، وسلّط ألاعيبه ودسائسه على بقيّة التجمّعات الإسلامية الأُخرى بين هذين الطرفين، فوهنت هذه التجمعات، وانحلّ عقدها، وسقط بعضها إثر بعض تحت نفوذ المستعمر الغربي، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى أصبح العالم الإسلامي كلّه تحت نفوذ هذا المُستعمر.

وجميع المسلمين على سطح المعمورة، تجمعهم رابطة واحدة، بها يديرون أعمالهم، ويوجهّون أفكارهم إلى الوجهة التي يبتغونها، وهذه الرابطة تشبه السبب المتين الذي تتصل به أشياء تتحرك بحركته وتسكن بسكونه.

ويعرض المؤلّف لمقالات المُستشرق «هانوتو» في موقفه من المسلمين والعالم

الإسلامي فيرى: أنَّ ما لدى المسلمين من معرفة وثقافة هي بعض بقايا تمدّن البيزنطيين (يونان الشرق) وليست ثقافة أصيلة ابتدعوها.

وإنَّ رسالة فرنسا بين المسلمين الذين خضعوا لسطوتها هي: «ملح المدنية وروحها» التي يحملها شعب آري مسيحي جمهوري إلى شعب إسلامي سامي الأصل، له تقاليد وعادات تغاير عادات وتقاليد المسيحيين الآريين.

كما أنَّ المسلمين الذين وقعوا تحت سيطرة النفوذ الفرنسي ليسوا منقطعي الصلة عن بقيّة المسلمين في الخارج، بل تربط بعضهم بعضًا رابطة قويّة، وديار المسلمين التي تحتلّها فرنسا، يعتبرها المسلمون القاطنون فيها والخارجون عنها «دار حرب» وليست «دار إسلام»، ولذا فالخطر موجود في الداخل والخارج.

ويرى «هانوتو» أنَّه يجب على المسلمين أن ينتقلوا إلى الحضارة الأوربيّة الآرية المسيحية، ويجب على شعوب أوربا المسيحية الآرية أن تتعاون فيما بينها على دفع الخطر الإسلامي الكامن ضمن الوحدة الإسلامية، الفكرية والروحية والغائية.

الصورة الأولى: قيام بعض مفكري المسلمين بحركة تقدّمية في الإسلام، تبغي تقرير سلطة المستعمر وتثبيت ولايته على المسلمين من الوجهة الإسلامية، أو بعبارة أخرى تبغي عدم تحديه ومعارضته، سواء في مُباشرة سلطته على المسلمين، أو في إدخاله ما يسمّيه بنظم الإصلاح الحديثة بينهم.

الصورة الثانية: قيام بعض الغربيين الآريين المسيحيين بإبراز الخلافات المذهبية، وتأكيد الفجوات والثغرات، بين طوائف المسلمين من الوجهة الشعوبية أو الجغرافية أو نظام الحكم... مع شرح كثير من مبادئ الإسلام شرحًا يشوهها وينحرف بها عن أهدافها الأصلية، وذلك كله بالإضافة إلى تمجيد القيم المسيحية، والحضارة الغربية، والنظام السياسي والسلوك الفردي للشعوب الغربية.

وفي مقابل هاتين الصورتين: برز اتجاه إسلامي فكري آخر هو حركة المُقاومة للاستعمار الغربي، سواء في مظهره السياسي أو فيما يستنبطه ويخفيه من الهجوم على الإسلام وإضعاف المسلمين، وهذا اتجاه يعتبر فعلًا مباشرًا لتوجيه الاستعمار الغربي للتفكير الإسلامي في صورتيه السابقتين.

ثمَّ يرصد لنا المؤلف بعض رموز الاتجاه الفكري المروج للمفاهيم الغربية من أمثال السير «سيد أحمد خان» الذي جاءت توجهاته كأثر لتوجيه الاستعمار الغربي، مثل القاديانية والأحمدية في الهند.

وقدم دعوته باسم الإصلاح والتقدمية تعتبر مقدمة وتمهيدًا لنشأة القاديانية، حيث تفرعت عنها (الأحمدية) في الهند.

وحول نشأة هذا الاتجاه يرى المؤلّف، أنّه حين استقرت أقدام الإنجليز في الهند وألقوا به عصاهم، وأحسوا أنَّ المسلمين ما داموا على دينهم، وما دام القرآن يُتلى بينهم، فمن المُحال أن يخضعوا لسلطة أجنبي، فنجحوا في تجنيد واستمالة مجموعة من المسئولين وأصحاب الرأي في سبيل إضعاف العقيدة الإسلامية عن طريق تشويه وتحريف الآيات القرآنية، مُضافًا إلى ذلك الشتائم والسباب لصاحب الشريعة.

وكان (أحمد خان) يحوم حول الإنجليز لينال الفائدة من القرب منهم، فعرض نفسه عليهم، وخطا بعض خطوات لخلع دينه، والتدين بالمذهب الإنجليزي، وبدأ الأمر بكتابه «تبيان الكلام» سنة ١٨٦٢م وفسّر فيه الإنجيل، وأثبت في هذا الكتاب – من وجهة نظره – أنَّ التوراة والإنجيل ليسا مُحرّفين ولا مبدلين لينال بذلك الزلفى عندهم.

وظهر بمظهر الطبيعيين الدهريين ونادى بأ لا وجود إلاَّ للطبيعة العمياء وليس لهذا الكون إله حكيم، وأنَّ جميع الأنبياء كانوا طبيعيين كانوا لا يعتقدون بالإله الذي جاءت به الشرائع، ولقّب نفسه بالطبيعي، فأخذوا في تعزيزه وتكريمه، وساعدوه

على بناء مدرسة في عليكرة، وسمّوها مدرسة «المحمودية» لتكون فخًّا يصيدون به أبناء المؤمنين ليربوهم على أفكار هذا الرجل (أحمد خان).

وكتب «أحمد خان» تفسيرًا للقرآن الكريم، فحرّف الكلم عن مواضعه، وبدّل ما أنزل الله، وهو يرى أنَّ قوّة أوربا المادية تكمن في رفضها للأديان، والبديل هو التمسك بمسالك الطبيعة والافتتان بالعلم الطبيعي أو بالطبيعة كما يقال يؤدي إلى النيل من القيم الروحية والمثالية.

وقد ربط (الأفغاني) بين إلحاد السيد (أحمد خان) ومذهبه الدهري أو الطبيعي، مع بقاء انتسابه إلى الإسلام، ونعته بالإلحاد.

ومن تحريفات (أحمد خان) أن جعل النبوّة غاية تحصل وتكتسب عن طريق الرياضة النفسية، فهي غاية إنسانية طبيعية، وطريقها طريق إنساني غير خارق للعادة.

وكان للسيد (أحمد خان) نفوذ سياسي تربوي، يقترن بنزعته التجديدية الدينية، أثّرت بدورها فيما بعد في خلق المذهب القادياني، وقد أحسّ الإنجليز من خلال نشاط ودعوة (أحمد خان) وأثر تعاليمه في خلق جماعة بين المسلمين تشكك في القيم الإسلامية، وبذلك استطاع أن يستبعد مشكلة الاستعمار الأجنبي عن أن تكون موضوعًا للجماهير.

في هذا السياق ظهرت القاديانية التي أسسها (ميرزا غلام أحمد) الذي توفي سنة١٩٠٨م، ومن مؤلّفاته (براهين الأحمدية) حيث ادّعى فيه أنَّه المهدي، ويرى أنَّه حلّ فيه عيسى ومحمد علي السواء، فهو نبي.

والجهاد عندهم لا يتجاوز الدعوة السلمية، في محاولة لتقريب الشقّة بين الإسلام والمسيحية، ومن ثم أعلنوا إبطال عقيدة الجهاد، ومن ثمّ أوقفوا الآيات الخاصة بالجهاد.

ثـمَّ يستـشهد المؤلّـف بـرأي الإمـام (أبـو الحـسن النـدوي) في فـضح تعـاليم القاديانية وبيان ضلالها وفساد تعاليمها التي تسيء الظنّ بالإسلام وتعاليمه.

وتطوّرت القاديانية إلى (الأحمدية) وترجمت القرآن إلى الإنجليزية سنة ١٩٢٠م وهم ينظرون إلى مؤسس المذهب (ميرزا غلام أحمد) على أنَّه مُصلح ديني فقط، بينما تنظر إليه القاديانية على أنَّه نبيّ مرسل.

المستشرقون.. والاستعمار:

دون الـدخول في مُقـدمات حـول الاستـشراق والمُستـشرقين، فـإنَّ جهـود الاستشراق تنطوي على نزعتين رئيسيتين:

النزعة الأولى: تمكين الاستعمار الغربي في البلاد الإسلامية، والترويج للمشروع الحضاري الغربي.

النزعة الثانية: الروح الصليبية في دراسة الإسلام، والتي ارتدت مسوح البحث العلمي، والنزعة الإنسانية.

والنزعة الأولى المُتعلّقة بالاستعمار الغربي تتجلّى في:

إضعاف القيم الإسلامية... وتمجيد القيم الغربية المسيحية.

ولسنا في حاجة إلى ضرب مئات النماذج التي تبرز جهود الاستشراق في هذا الجانب والتي يمكن تلخيصها في جانبين: تشويه المفاهيم والمبادئ الإسلامية، والثاني فيما يتعلّق بحياة المسلمين وصلاتهم وعلاقاتهم، بأنفسهم وبالشعوب الإسلامية، وأهم ما ينشرونه في هذا الميدان إعلاء النعرات الشعوبية والنزعة القومية، وتأليب الطائفية، وزرع الصراع بين الحكومات والشعوب الإسلامية، وطالبوا بتطوير الإسلام، وأنَّ هناك تعددية إسلامية وليس إسلامًا واحدًا، والحيلولة دون الحديث أو حدوث الوحدة الإسلامية.

وأهم الأفكار الاستعمارية التي تبنّاها الاستشراق: إبعاد الإسلام عن مجال

العلاقات بين الأفراد، ورفض فكرة الجهاد ومحاولة إلغائها، ودعوة المسلم إلى الخضوع والولاء لغير المسلم، الإسلام يخضع لعنصر الزمن، والإسلام كدين يتعدد بتعدد شعوبه وأجناسه، والإسلام دين فرديّ لا علاقة له بالآخرين أو بالجماعة، مقولة فصل الدين عن الدولة.

وفي المقابل الترويج لقيم الحضارة الغربية، إعلاء البُعد الماديّ، الإيمان بكل محسوس، رفض الغيبيات، الإيمان المُطلق بالعقل، عبادة العلم، الإيمان بالتطوّر المُستمر، نسبيّة القيم الأخلاقيّة.

ومن خلال هذه المنهجيّة الاستشراقية ذات الطابع الاستعماري انطلق الفكر العربي المُتغرّب، حيث تبنى هذه المفاهيم وتلك المبادئ ومحاولة نشرها كبديل للإسلام الحقّ.

مقاومة الأفكار المُروّجة للغرب:

تعددت أشكال وصور مقاومة الاستعمار الغربي، بوجهيه العسكري والفكري، وفي الإطار الفكري، انبرى تيار اليقظة الإسلامية، يسبر أغوار الاتجاهات المُناوئة فاضحًا توجهاتها وأساليبها التي تسعى لإقصاء الإسلام واستبعاده في إطار خارطة الكيانات المعاصرة.

وكان لابُدَّ لهذا الاتجاه أن ينقد الاتجاه الآخر المُقابل له، وينقد عناصره الفكرية سواء من الوجهة المنطقيّة الإنسانية، أم من الوجهة الإسلامية، وفي الوقت الذي يقوم فيه بالنقد كان لزامًا عليه كذلك أن يعرض خطّة عملية لمقاومته، ومقاومة الداعين له والمساعدين على الدعوة إليه.

ولذلك نرى هذا الازدواج في الدعوة إلى مقاومته، نرى نقدًا نظريًّا ومنهجًا عمليًّا، وبعبارة أخرى نرى: سياسة، ودينًا.

أمَّا النقد النظري، فيعرض لمثالب العناصر الفكرية أو المذهبية التي تعين

الاستعمار في استعماره.. فنرى: نقدًا لحركة السيد أحمد خان، ونقدًا آخر للقاديانية، ونقدًا ثالثًا للاستشراق الغربي الذي ألبس ثوب العلم، ونرى الناقدين لهذه العناصر يضعون منهجًا فكريًّا آخر لتقوية المسلمين في مُعارضتهم للاستعمار، وفي صلتهم بالإسلام وفهمهم لمبادئه، فهمًا يمكنهم من السير في الحياة القائمة.

فالأفغاني قد رد في كتابه «الرد على الدهريين» على السيد أحمد خان، ناقدًا اتجاه الطبيعي نقدًا يتّسم بالمنهجية والعُمق.

وفي الوقت نفسه يدعو - الأفغاني - المسلمين جميعًا إلى العودة إلى القرآن الكريم، ونبذ الخصومة المذهبية، والرجوع إلى حال المسلمين الأُوَل، قبل انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقتما منع العباسيّون باسم الخلافة، دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه في الدين والاجتهاد في أصوله وفروعه، كما كان الراشدون ﷺ.

ونرى «محمد إقبال» يهاجم القاديانية هجومًا عنيفًا من الوجهة الإسلامية والوطنيّة، وفي الوقت نفسه يكتب كتابه «تجديد الفكر الديني في الإسلام Re-Construction of Religious thought in Islam ويوضح فيه محاولته لتقرير (علم الكلام) الإسلاميّ في صورة حديثة، كما يوضّح مزايا التعاليم الإسلامية في خلق جماعة حيّة قويّة، ويطلب إلى المسلمين أن يفهموا الإسلام في ضوء الحياة المُعاصرة. وأن يسعوا في تكييفها وطبعها بطابع إسلامي بدلًا من وقوفهم عند حد مفاهيم عصر الركود للمبادئ الإسلامية، تلك المفاهيم التي لم يعد التمسك بها الآن ذا أثر إيجابي في حياة المسلم الحاضرة.

ونرى الشيخ «محمد عبده» يهاجم الاستشراق، ثمَّ يضطره هذا الهجوم إلى الكتابة عن مزايا الإسلام بالنسبة للمسيحيّة، وفي ذات الوقت يضع منهجه التربويّ لفهم إسلام القرآن والسنة الصحيحة بدلًا من إسلام المُتكلمين، وإسلام أرباب الكتب المتأخّرة التي كانت تعيش في عزلة عن الحياة العامّة، وهذه الحياة العامّة

نفسها، كان طابعها الانقسام إلى شيع، والتعصّب والتقليد الضارّ، والضعف السياسي والاقتصادي..

وبذل الشيخ جهدًا كبيرًا لإثبات كون الأمّة الإسلاميّة لها شخصيّتها ولها هدفها في الحياة، ولذلك نراه يدعو إلى الأخذ بمنهج القرآن والرجوع إلى عهد صدر الإسلام لفهم التغيّر الذي أحدثه القرآن الكريم في صدور ونفوس الكتيبة المؤمنة التي حملت لواء الإسلام بقيادة النبيّ ﷺ.

ونادى بوجوب مُساهمة الأغنياء في تعليم الأمّة، في محاولاته لتصحيح مسار التعليم الأزهري، وأبرز المسلكيّات الخاطئة في المجتمع المصري وإعادة توزيع ثرواته على الأُمّة، وتركيزه على الجانب التربوي والتوجيه العام ومُحاربة الحزبيّة المذهبية التقليدية، وإحياء كتب التراث، حتّى وصل به الأمر إلى تقدير المُستشرقين له ولجهوده الرائدة.

اتجاه الفكر الإسلامي منذ بداية القرن العشرين:

منذ بداية القرن التاسع عشر... بعد وفاة «جمال الدين الأفغانيّ» وبعد الجهود الإصلاحيّة التي قام بها الشيخ «محمد عبده»، وبعد أن ظهر الاتجاه السياسي للزعيم «مصطفى كامل»، اتّجه الفكر الإسلامي المقاوم للاستعمار الغربي هنا في رقعة الشرق الأدنى إلى شعبتين:

الشعبة الأولى: اتجهت إلى التعبئة الروحية والإصلاح، عن طريق عرض الإسلام عرضًا واضحًا، والعمل على جعله أساسًا في التربية الوطنيّة، وسبيل ذلك إصلاح الأزهر، وإحياء الكتب القديمة.. وقد مثّلت المدرسة «السلفية» التي قادتها مجلّة «المنار» هذه الشعبة بعد وفاة الشيخ محمد عبده.

والشعبة الثانية: اتّجهت إلى تعبئة الحماس القومي في الجيل الناشئ عن طريق: الصحافة، والاجتماعات العامّة، ثمّ عن طريق تخريج مجموعة تتمتع بالحرية العلمية

على النظام الغربي، وهو هدف الاستعمار، وما نزال نُعاني من رواسب هذا النظام حتّى الآن.

يقول المستشرق الإنجليزي «جب» في تحديد هذين الاتجاهين:

أنَّ النتائج التي أعقبت نشاط الشيخ عبده اتجهت بعده إلى اتجاهين متقابلين:

فمن جانب نشأ مُحيط (مدنيّ) في التفكير، صُوِّر على أنَّ «التجديد»، وهو يقوم على الاحتفاظ بالعقيدة الإسلامية، ولكنّه متأثر بالأفكار الغربية.. والمثل التقدمي لهذا التجديد يميل إلى «العلمانية» التي تهدف إلى فصل الدين عن الدولة، والاستعاضة بالنظام الغربي (للقانون) عن الشريعة الإسلامية.

وقد طبقت مبادئ (العلمانية) في تركيا بعد إلغاء الخلافة العثمانية في سنة١٩٢٤م، وما قامت به تركيا العلمانيّة من خطوات في سبيل تقويض الإسلام في تركيا والقضاء على مفهوم الوحدة الإسلامية، ليس هنا مجاله، حيث يضيق المقام.

وفي المقابل ظهر التيار السلفي الذي يتخذ من المرجعية الإسلامية كتابًا وسنّة، كأساس للانطلاق نحو تحقيق النهضة الإسلامية.

نموذج تجديدي علماني:

دون الدخول في تفاصيل سيرة «طه حسين» وحياته وأهدافه، فيقول في «مستقبل الثقافة في مصر»: «إنَّ مصر قد أنشأت الجامعة لترتفع بالشباب المصري عن ذلك التعليم الآلي الذي فرضته الظروف، ولترقى بهم إلى تعليم حّر مستقلّ، يهيئهم أو يهيئ بعضهم على الأقل ليكونوا علماء أحرارًا مستقلين» .

ويرى أنَّ ما سلكه الغرب، يجب أن تسلكه مصر في طريقها التجديدي، ومن ذلك تعليم اللغتين اللاتينية واليونانية في الجامعة.. ويصل الإحساس بالهزيمة أمام الغرب، حين يعتبر أن السبيل إلى النهضة ليس له إلاَّ طريق واحد: أن نسير سير

الأوربيين ونسلك طريقهم، لنكون لهم أندادًا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرّها، حلوها ومرّها، ما يحب منها وما يكره وما يُحمد منها وما يعاب...

ويصل الإحساس بالضآلة الحضارية والفكرية مداه حتّى يقول فإذا كُنّا نُريد هذا الاستقلال العقلي والنفسي، الذي لا يكون إلاَّ بالاستقلال العلمي والأدبي والفنّي، فنحن نُريد وسائله بالطبع...

وسائله: أن نتعلّم كما يتعلّم الأوربيّ، ولنشعر كما يشعر الأوربي ولنحكم كما يحكم الأوربيّ، ثمّ لنعمل كما يعمل الأوربيّ، ونصرف الحياة كما يصرفها.

والأساس الذي قامت عليه فكرة (التجديد) على هذا النحو عند صاحب «مستقبل الثقافة في مصر» هو أنَّ العقليّة المصرية عقليّة أوربية، أو قريبة قُربًا شديدًا من الأوربيّة، ولها اتّصال وثيق بالعقليّة اليونانيّة، وبعيدة كُلَّ البُعد عن العقليّة الشرقيّة».

وقد وصل الأمر بـ «طه حسين» إلى رفضه للدين كرابطة لتحقيق الوحدة السياسيّة، أو كقوام لتكوين الدول.

ومن خلال هذا الطرح الذي قدّمه «طه حسين» تشكّل العديد من النُخب الفكرية التي شعرت بالهزيمة الحضاريّة أمام الغرب، فتبرأت من تراثها، وتخلّت عن هويّتها وبحثت عن تقنين الهزيمة ونحسب أنَّها تمثّل الفكر الحرّ.

ثمَّ يعرض المؤلّف لبعض القضايا التي تناولها الاستشراق، يضيق المجال هنا لعرضها بالتفصيل، ومنها محاولة وصف الوحي المُنزّل وربطه بالعنصر البشري ورفضه خصوصيّة التنزيل، ونسبه إلى النبيّ ﷺ، وهي فكرة تهدف إلى تخلّي المسلم عن إيمانه وعقيدته.

والقضية الأُخرى هي قضيّة «الشعر الجاهلي حيث يدّعي الاستشراق أنَّ

الشعر الجاهليّ لا يمثّل حياة العرب قبل الإسلام، ولا يمثّل حقيقتهم، وذلك من خلال الادّعاء الذي يطرح التساؤل: استحالة ظهور القرآن في أُمّة جاهليّة همجيّة؟ ويقصدون الحقبة الجاهليّة.

وبناء على ذلك تكون قصّة إسماعيل بن إبراهيم الذي يُنسب إليه العدنانيّون قصّة خياليّة، وكذلك ما يروى من حديث نبويّ: «أنَّ أوّل من تكلّم بالعربيّة ونسي لُغة أبيه (وهي اللغة العبريّة أو الكلدانيّة) إسماعيل بن إبراهيم» حديث موضوع.

ومُنطلق هذا كلّه أنَّ القرآن ليس وحيًا لرسالة الله، إذ لو كان وحيًا من عند الله لكان للنّاس جميعًا، ثمَّ إنَّ العرب أنفسهم لم يكونوا في جهل، ولم يكونوا على ضلال، حتّى يحتاجوا لرسالة جديدة تدعو إلى الهداية.

وتبدو الفجوة واسعة بين قسوة الهجوم على (الأزهر) ورقّة الحديث عن (الكنيسة) القبطية في كتابه «مُستقبل الثقافة في مصر» .

ذلك هو وضع وحال منهجيّة المُجددين في الواقع العربي المُعاصر، لمسنا من خلالها بوضوح المرجعيّة الاستشراقيّة والثقافة الغربيّة لتوجهات الخطاب التجديدي العلمانيّ.

ثمَّ يعرض المؤلّف لقضيّة من أخطر القضايا التي واجهت العقل الإسلامي المُعاصر ولم ينتهِ الجدال حولها حتّى الآن، وهي قضيّة علاقة الدين بالدولة، وهي تعبير واضح عن مُصطلح العلمانيّة.

ومن أهمّ المؤلّفات التي دافعت عن الموقف الغربي تجاه قضيّة العلمانية، موقف الشيخ «علي عبد الرازق» في كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، وهو يُدْرج ضمن المؤلّفات التي تسعى لتشويه وتكذيب الارتباط الوثيق بين العقيدة والشريعة، بين الإيمان والواقع، هذا الموقف الذي يخصّ تجربة الإنسان الأوربي مع الدين، ولكنّه

غريب تمامًا عن الحقائق الإسلاميّة.

وفي عرضه لهذه الدعوى، يستعير كتابات المُستشرقين ما لهم من آراء في هذا الجانب تواضعوا عليها عند النظر إلى الإسلام.

وخُلاصة هذا الكتاب، أنَّ الإسلام «دين» فقط، وأنَّ ما يدعو إليه من «وحدة» بين المؤمنين به هو وحدة دينية... لا وحدة في (الحكومة) أو في (الدولة) أو في الترابط السياسي والعلاقات العامّة.

وقد لخّص «عبد الرازق» قضيته في القول: «إنَّ الدين الإسلامي بريء من تلك الخلافة التي يتعارفها المسلمون، وبريء من كل ما هيّأ حولها رغبة ورهبة ومن عزّ وقوّة، والخلافة ليست في شيء من الخطط الدينية ولا القضاء ولا غيرها من وظائف الحُكم ومركز الدولة، وإنَّما تلك خطط سياسيّة صرفة لا شأن للدين بها، فهو لم يعرفها، ولم ينكرها، ولا أمر بها ولا نهى عنها، وإنَّما تركها لنرجع فيها إلى أحكام العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة».

وفي فقرة أخرى يؤكّد «أنَّ رد الإسلام إلى دائرة الروح، ورد الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة بعد تحريرها عن الدين، إلى دائرة العلم الوضعي هما السبيل إلى التقدّم، وإلى مُسابقة الأُمم في طُرق الرقيّ».

وهذا الوجه للحركة التغريبيّة الذي يتخطّى في خطورته ونتائجه السياسيّة والاجتماعيّة كلّ الحدود، وينطوي على قلب شامل للصورة التاريخيّة التي تبلورت في الحضارة الإسلاميّة، حيث أراد أصحاب هذه النزعة جعل الإسلام مجرّد دين فحسب بالمعنى الغربيّ الحديث لهذه الكلمة، أي باعتباره منظومة روحيّة من العقائد، التي تدور حول القضايا الكلاميّة أو العقائديّة المُجرّدة، حول الله والإنسان والوجود الأوّل والآخر.

والحقيقة أنَّ فصل الدين عن الدولة، ليس مجرّد بديل «غربيّ» عن الخلافة، بل محاولة مقصودة للحيلولة دون عودة هذه الخلافة في يوم من الأيّام، إذ لا يكفي «نفي» الخليفة عن الزمن، وإنَّما المُهمّ القضاء على ما يجدد شرعيّته في التاريخ.

وهنا لابُدَّ من التأكيد على أنَّ عملية استبعاد المنهج الإسلامي عن واقع الحياة واعتباره منهجًا روحيًّا فقط، صفة لازمة لكلّ دُعاة التغريب في الواقع الإسلامي الحديث، يؤكّد ذلك المنطق الداخليّ للاتجاهات التغريبيّة على اختلاف فصائلها واتجاهاتها والحقيقة أنَّ السلطة الحاكمة في الإسلام فريضة شرعيّة، فوق كونها ضرورة اجتماعيّة، وذلك أنه لما كان المجتمع الإنسانيّ ظاهرة حتميّة كذلك كانت السلطة، وهي مُلازمة له، ومتواكبة معه، فالمُجتمع الإسلامي محكوم بشريعة مُنظّمة لكيانه بأسره، تسري في أوصاله، تبين له العقيدة، وتنظّم له السلوك، وتقيم له قواعد الأخلاق، وتضع له أصول الحكم وتفصل له دقائق التقنين.

الدين خرافة:

عرض المؤلّف لمسألتين يرددهما الاستشراق وأتباعه من العلمانيين والمُتغرّبين العرب، وهُما «بشريّة القرآن» و«الإسلام دين لا دولة».

وهما فكرتان ينصب أثرهما السلبيّ على الإسلام وحده، دون المسيحيّة أو اليهوديّة، وهذه هي ظاهرة الاتجاه الاستشراقي في تفكير الغربيين.

ومن المفاهيم التي سيطرت على هذا الاتجاه، البُعد المادي من خلال الفكر الوضعي البشريّ، والذي تبلور بوضوح في الفلسفة الماركسيّة، وأصبح بعد الحرب العالمية الثانية يتصارع في عنف مع «الديمقراطية» الغربية من جانب، والأديان جميعًا من جانب آخر.

وقد عرض المؤلّف لمسألتين هامتين بخصوص هذا الاتجاه:

- خرافة الميتافيزيقا: وتتضمّن خرافة الدين، وإنكار قيمته في التوجيه، وهي

وليدة الفكر الماديّ السابق على ظهور الشيوعيّة.

– والثانية: «الدين مخدر» وتتضمّن مطاردة الدين وإبعاده عن مجال الإنسان والجماعة، «والدين مخدر» هو شعار الشيوعيّة أو الماركسيّة.

وفي تناوله «لخرافة الميتافيزيقا» يعرض لكتاب زكي نجيب محمود، بالعنوان السابق، ويلخّص مضمون الكتاب في العبارة الآتية: «الغاية الرئيسية من هذا الكتاب هي: بيان أنَّ العبارات الميتافيزيقيّة خلو من المعاني، مع تحديد الميتافيزيقا بأنَّه البحث في أشياء لا تقع تحت الحس، لا فعلًا ولا إمكانًا، لأنَّها أشياء بحكم تعريفها لا يمكن أن تدرك بحاسّة من الحواس» .

فالميتافيريقا في لغة الكتاب، هي كل معرفة وراء الطبيعة، وهي كلام فارغ لا يحمل أي معنى، وهكذا يكون لفظ (الله) فارغًا ولا مدلول له وهو خُرافة.

لقد حاربوا التثليث، وعقيدة ألوهيّة عيسى، والاعتقاد بعصمة البابا، وبسلطانه الزمني، ولم ينقدوا «الإيمان» في أصله، بل نقدوا الطارئ عليه، ممّا لا يستقيم مع العقل الإنسانيّ الواضح، ولكن هنا في مصر والشرق الإسلامي، عندما ارتضى «المجددون» لأنفسهم أن يكونوا مرددين لمفكري الغرب، رددوا هجومًا على دين ليس ثمة داع لمُهاجمته، وهو الإسلام، لأنَّهم قرأوا ما يشبه الهجوم على المسيحية باسم النقد العلمي أو العقلي.

وفيما يتعلّق بكون «الدين مخدر»: يرى المؤلّف أنَّه قد مضت على التفكير الأوربي منذ القرن الرابع عشر إلى الآن مراحل شهدت فيها العقليّة الأوربيّة صراعًا فكريًّا، واتجاهات عقليّة مُختلفة، تدور حول تبرير مصادر المعرفة التي عرفتها البشريّة في تاريخها حتّى الوقت الحاضر، وهي الدين والعقل والحس أو الواقع.

وكان «الدين» أو «النص» سائدًا طوال القرون الوسطى في توجيه الإنسان،

سواء في سلوكه وتنظيم جماعته، أو في فهمه للطبيعة، وكان يقصد بالدين «المسيحيّة» وكان يُراد من المسيحيّة، الكثلكة، وكانت الكثلكة تعبّر عن «البابويّة»، والفلاسفة الذين ناصروا الدين والوحي، اعتبروا أنَّ الألوهيّة هي المرجع الأخير للوجود وللمعرفة على السواء.

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ظهر عصر «التنوير»، وهو عصر له طابعه الخاصّ، حيث يسيطر عليه استخدام العقل، والشجاعة والجرأة في تناول القضايا المصيرية، وغلبة المصالح والمنافع الفرديّة وسيطرة النزعة الإنسانيّة كبديل عن الخصوصيّات المذهبيّة والعقل كبديل عن الدين.

وأطلق على هذا العصر، عصر سيادة العقل، ووصف بالخصومة الجذريّة مع الدين، وفي هذا الإطار يعدد المؤلّف نماذج من الفلاسفة الذين مثّلوا هذا الاتجاه في مُحيط الثقافة الغربيّة، حتّى يصل إلى الفلسفة الماركسيّة التي تمثّل عنفوان الماديّة في الثقافة الغربيّة والتي تؤمن بالبعد المادي الاقتصادي كمحرك للتاريخ، وأنَّ الصراع الطبقي هو الذي يحكم الحراك الاجتماعي والاقتصادي في المُجتمعات، وأنَّ سيطرة وانتصار طبقة العمال (البروليتاريا) على طبقة الرأسماليين، هو النتيجة المتوقّعة لهذا الصراع.

إنَّ الماركسيّة صراع فكريّ بين الله والعقل من جانب، والمادة من جانب آخر، هو صراع بين قيمة الإنسان والحياة الإنسانيّة وبين ما عدا الإنسان والحياة الإنسانيّة من العالم المحسوس، وقيمة الحياة الحسيّة.

وتصف الماركسيّة الدين بأنَّه مُخدّر، لأنَّه يدعو إلى تأليه غير المحدود وفي الوجود، وهي تقف عند المحدود الذي هو الحسّ، والدين مخدّر لأنَّه يقف في طرف مقابل لما تؤمن هي به.

إنَّها تدعو إلى عبادة الدولة، وذلك عن طريق الفلسفة، فهي «وثنية» باسم الفكر، وتؤمن بنسبيّة القيم الأخلاقيّة، وترفض كونها مُطلقة لأنَّ إطلاقها سوف يقدّسها، وهي لا تقدّس إلاَّ الحسّ والمادة.

والفلسفة الماركسيّة، فوق أنَّها جملة من المتناقضات، دعوى إلى انتكاس البشريّة، وليس إلى تقدّم الإنسانيّة، هي عود بالإنسان إلى الرقّ، وعود بالفكر والإيمان إلى «الجبر» وعود بالإنسانية إلى «الوثنيّة» وبالأخلاق والقيم إلى الانطلاق في «الحيوانيّة».

ونحن لا نستطيع وضع مُقارنة بين تعاليم الماركسيّة والمبادئ الإسلاميّة، لأنَّ كلّ ما جاءت به تتصادم مع الفطرة الإنسانيّة، كما أنَّ هذه التعاليم لا ترقى إلى المُقارنة مع المبادئ الإسلاميّة، التي تعلو فوق الزمان والمكان وتحمل من الإمكانات ما تواجه به كافّة التحديات والمُتغيّرات وتطرح سؤالًا جوهريًّا: ألم تسقط المنظومة الماركسيّة في قمامة التاريخ المذهبي والفلسفي، لأنَّها كانت تحمل في تعاليمها عوامل تناقضها ومن ثمّ كان سقوطها المدوّي، وبقي الإسلام - بالرغم من كلّ المؤامرات - يتحدّى ويغيّر ويضيف إلى حضارة الصراع، قيم الحق والخير والعدل.

وعن حقيقة الإصلاح الديني في الإسلام:

يرى المؤلّف أنَّ هذا الجانب يمثّل محاولة ردّ الاعتبار للقيم الدينية، ورفع ما أثير حولها من شُبه وشكوك، وهو يعني محاولة السير بالمبادئ الإسلاميّة من نقطة الركود التي وقفت عندها في حياة المسلمين إلى حياة المسلم المعاصر، حتّى لا يقف مسلم اليوم موقف المتردد بين أمسه وحاضره، لينطلق نحو المستقبل.

والكشف عن القيم الذاتيّة للإسلام، هو الأمارة التي اتخذناها طابعًا لقضيّة «الإصلاح الديني»، والهدف من هذا الكشف هو استبعاد صور التحريف والتأويل المُتعسّف والمغرض، وبيان أوجه التآمر على الوحي.

وهذا يعني أنَّ «الإصلاح الديني، تفكير ومنهج، يقوم على نقد بنّاء، ويخلص إلى اعتبار قيمة واحدة، هي قيمة الإسلام في التوحيد الإنسانيّ.

وقد اعتمد المؤلّف على تناول شخصيتين، تعرضنا لهما من قبل، وهما الشيخ «محمد عبده» والمفكر الفيلسوف «محمد إقبال» وكلاهما عاش في القرن التاسع عشر، وكلاهما حفظ القرآن الكريم، ووقف على حياة الشرق. وكان «محمد عبده» يعي من الثقافة الإسلاميّة، بقدر ما كان الثاني يعي من الثقافة الغربيّة ودفع الشيخ «محمد عبده» – عن طريق «الأفغاني» إلى مواجهة الاستعمار الغربي، وما صحبه من صليبيّة الغرب في تشويه الإسلام وتحريفه.

وواجه إقبال الفكر الماديّ الغربي، وما قام عليه من إلحاد، وتأثير ذلك على وضع وتفكير المسلم المعاصر.

واضطر كلاهما إلى أن يكشف عن (قيمة) الإسلام في دفع المؤمنين به إلى الحياة والعمل فيها، وقيمته في نظرته وتصويره للحياة الإنسانيّة في مواجهة الصليبيّة الغربيّة تارة، أو في مواجهة الفكر الماديّ الغربيّ الإلحادي تارة أُخرى.

محمد عبده، ومحمد إقبال، كلاهما قام إذن بمحاولة فكريّة إسلاميّة، أو بحركة إصلاحيّة في تعديل ما شوهه التغريب من المفاهيم الإسلاميّة، وكلاهما دفع إذن إلى هذه المحاولة تحت ضغط عامل خارجيّ – محمد عبده – تحت ضغط الاستعمار وسلطته – وإقبال – تحت ضغط الفكر الماديّ الطبيعيّ وسيادته في أوربا، وانتشار الدعوة إليه في الهند، خاصّة في ذلك الوقت، من خلال دعوة «أحمد خان».

إلاَّ أنَّ محاولة «محمد عبده» تعتبر قريبة من منطق الثقافة الإسلاميّة، بينما محاولة «إقبال: تعتبر قريبة من منطق التفكير الغربي، وليس معنى ذلك أنَّ أحدهما أقرب إلى روح الإسلام والثاني إلى روح الغرب، ولكن معناه أنَّ طريقة التفكير يغلب عليها الطابع الغربي في الجدل، وفي تحديد الألفاظ والعبارات، وإثارة السؤال والإجابة

عنه عند أحدهما، بينما طابع التفكير في الشرق، واستخدام أسلوب اللغة، وأسلوب المُناقشة فيه يسيطر عليه عند الآخر.

وتنتهي بنا إضافات المؤلّف إلى عرض رؤية استشرافية تسعى إلى بيان نتائج الحصاد الذي جناه الإسلام من جرّاء هذا الصراع المحتدم بين الفكر الإسلامي الأصيل والفكر الغربي الدخيل، حيث توصّل إلى أنَّ الإسلام فوق الزمان والمكان، ثمَّ قام بإطلالة على دور الأزهر وحركة التطوير التي سعى إليها البعض في إطار اللحاق بالواقع المُعاصر.

ثمَّ قدّم لنا في نهاية الكتاب جهدًا علميًا يتمثّل في رصده للعديد من المستشرقين ومؤلّفاتهم من خلال منهجيّة تصنيفيّة وموضوعيّة، يمكن أن يستفيد منها الباحث المسلم المعاصر.

بعد هذا العرض تبرز أهميّة تناول مشكلات العلاقة بين الإسلام والغرب، على مُختلف الأصعدة، وخاصّة فيما يتعلّق بالصراع الفكري والحراك الثقافي ولعلّه من نافلة القول التأكيد على الوجه الفكري والمذهبي للاستعمار الذي يسعى إلى إقصائه واستبعاد الدور الإسلامي في الواقع المعاصر، وحاول الكتاب إبراز المرجعيّة الغربيّة والاستشراقيّة لكثير من رموز الفكر التغريبي والعلماني في واقعنا الإسلامي، والكتاب يعدّ من المحاولات المبكرة التي وقفت عند هذه القضيّة وأبرزتها للساحة الفكريّة، حيث ركّز على العديد من القضايا الرئيسية التي تهدف إلى النيل من المفاهيم الإسلاميّة والمجتمعات الإسلامية.

وهذه النوعية من المؤلّفات لها أهميّتها للقارئ المسلم، حيث تدرج هذه الجهود في إطار صراع الأفكار في واقعنا المعاصر، الذي أكّدت طبيعة المرحلة أنَّه حجر الزاوية في سعينا نحو تَبَوُّء مشعل الحضارة من جديد.